

الغفلة طريق الهلاك، فانتبهوا قبل الندم

عباد الله: الغفلة طريق الهلاك، فانتبهوا قبل الندم والحسرة، واتقوا الله تعالى بامتثالكم لأوامره، واجتنبكم لنواهيه، وتوددوا إليه بالإكثار من الصالحات، والمساعدة إلى الطاعات، ولودوا بجنابه مُندللين مُنكسرين، تائبين من ذنوبكم مُستغفرين، تتألموا مغفرته وعفوه ورحمته، وتقرؤوا بتوايه ونعميه، وتكونوا من المفليحين، أيها الإخوة: جاء شيخ كبير هريم، قد اُخذ ودب ظهره، وابتض شعره، وسقط حاجباه على عينيه، يجر خطواته نحو المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، قد علاه الأسى، وامتلا قلبه من الرجاء، فوقف على رأس النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله، رجلٌ عذرٌ وفاجرٌ، لم يدع حاجةً ولا حاجةً إلا اقتطعها بيمينه، لو قُسمت خصيلته بين أهل الأرض لأوتيتهم، فهل له من توبة؟ وهو يعني نفسه، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أسلمت؟ فقال: أما أنا، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: فإن الله عاقب لك ما كُنت كذلك ومُبدل سبائتك حسنات، فقال: يا رسول الله: وعذراتي وفجراتي؟ قال: وعذراتك وفجراتك، قال: فوالى الرجل يكبر ويكبر من شدة الفرح حتى تورى عن أعين الناس [رواه الطبراني والبرزنجي وصححه الهيثمي والألباني] عباد الله: الإجابة الإجابة، قبل غلق باب الإجابة، والغنمة الغنمة، بانتهاز الفرصة، فما منها عوض، ولا يعادلها قيمة، فمن أصبح أو أمسى وهو على غير توبة، فهو على خطر، قال الله سبحانه وتعالى: وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ، وإن من نعم الله تعالى أن يسر للمذنبين طريق التوبة والهداية والرجوع إلى الصراط المستقيم، بل من نعم الله أن جعل للمذنبين باب التوبة مفتوحاً على مصراعيه لمن أراد أن يتوب توبة نصوحاً لا يصد عنه قاصد، ولا يغلغ في وجهه لاجئ أبداً كان وأبداً ما ارتكب من الذنوب والآثام عباد الله: مهما كثر عليك حديث التوبة ومهما طرقت سمعك وبصرك حديث الموعدة فلا تتصجر ولا تتأفف بل الأولى والأحسن أن تفرح بداعي الرحمن وعطاياه، كلنا وبلا استثناء محتاجون للتوبة، محتاجون لمن يذكركم بالله تعالى، محتاجون لمن يرقق قلوبنا، محتاجون لمن يقرئنا إلى ربنا أكثر وأكثر، يقول الله تعالى: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، لكن وأنبوا.... في هذه الآية الكريمة خطاب لنا من رب العزة، فيه من الجمال ما يعجز اللسان عن وصفه! تأمل قول الله [يا عبادي] وتلك الطمأنينة التي تنبعث من بين الحروف والكلمات! أي فهمًا كانت ذنوبك وزلائك فلا تجزع ولا تياأس من مغفرة الله، فقط أقدم إلى الله واستغفره تجده سبحانه عفوراً رحماً، يقول الله تعالى: وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا، أيها المسلم المبارك، مهما كان انهماك في الدنيا ومهما كانت أعمالك السيئة كثيرةً وارتباطاتك بالمعاصي عديدةً ومهما أشغلتك الدنيا بريقها وزخرفها وجمالها، يخاطبنا ربنا فيقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَآخِرُ نَارِ الْبَرِيَّةِ [التحرير] عباد الله: كلنا نعرف ذنوبنا وتقصيرنا، ونعرف معاصينا، ونعرف السيئات التي نارسها وتفعلها، ونكثر منها وندمنا، فما علينا إلا أن نقبل على الله، ونطرح بين يدي الله كل ذنوبنا، ونسأله العفو والغفران، والصفح والأمان، والمغفرة والإحسان، وتوبة تجلي أنواعها ظلمات الإساءة والعصيان، فإن ربنا غفور رحيم كريم مئان، يفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه واستكان: وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ [هود] ويقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله تعالى يقبل توبة عبده ما لم يُعزغ أي ما لم تُخرج روحه، [رواه أحمد وحسنه الألباني] وماذا لو انتقلنا في لحظة واحدة من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ، ومن هذه الحياة إلى حياة القبر؟ ماذا سنقول لربنا عن تفریطنا وتقصيرنا؟ وكيف سنقابل الله ونحن ملوثون وملطخون بمعاصينا وذنوبنا وآثامنا؟ وكيف سنعتبر في يوم لا ينفع فيه الاعتذار ولا تجدي فيه الحسرات؟ في يوم يقال فيه للعصاة: فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُم النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبئس النصير، ولذا قال ربنا في نهاية الآية التي سبق ذكرها: وَأَيُّبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاحِرِينَ [الزمر] اللهم إنا نشكو إليك غفلتنا، وتوب إليك مما فعلته أيدينا، وارتكبته أنفسنا، واستغفرك مما علمنا من خطايانا وما لم نعلم، جدير بك أخي المسلم أن تختلي بنفسك لحظة وتتساءل: هذه المواعظ التي نسمعها كل جمعة وأعظمها مواعظ ربنا عز وجل، أين كان مصيرها؟ هل زادت العبد قرباً من الله عز وجل؟ هل زادت بصيرة في نفسه؟ هل زادت خوفاً من الله؟ هل زادت رغبة في الجنة؟ هل زادت خوفاً من النار؟ هل زادت إقبالاً على الطاعة؟ هل زادت إعراضاً عن المعصية؟ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن تُوزنوا، فإنه أخف عليكم في الحساب عدا أن تُحاسبوا أنفسكم اليوم وتزبنوا للعرض الأكبر، يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية، وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: الدنيا ليست بدار قرار، بل كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها فيها الظعن أي الارتحال، فكم من عامر عما قليل يجرب، وكم من مقيم عما قليل يظعن أي يرتحل، فالدوام لله سبحانه ، فالله أسأل أن يعفّر لنا ذنوبنا، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، اللهم اغفر لنا ما قدمنا، وما أخرنا، وما أسررنا وما أعلنا، وما أنت أعلم به منا، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت اغفر لنا ذنوبنا.